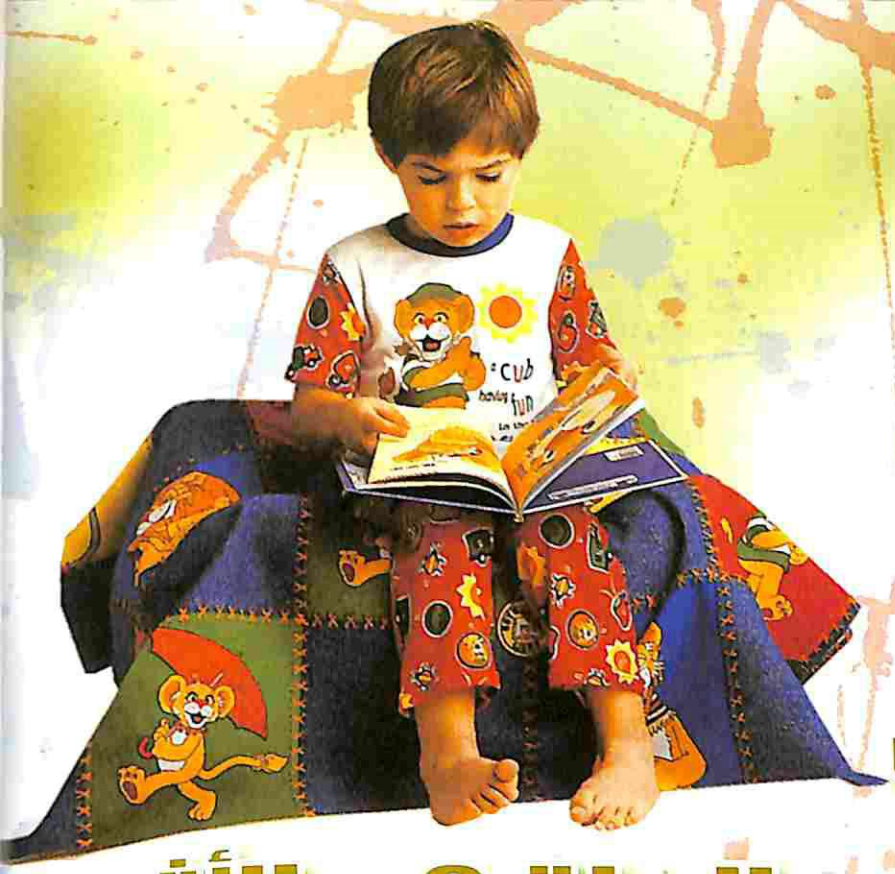

غياب النقد في أدب الأطفال.. الواقع والأثر

في اللغة: النقد والتنقاد تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها. وناقدت فلانا إذا ناقشته في الأمر[1]. ونقد ينقد نقدا: الشيء ليختبره أو ليميز جيده من رديئه. ونقد الكتاب أظهر ما فيه من جودة أو عيب[2].

هذا النقد غائب عن أدب الأطفال بصورة لافتة للنظر. وهو النقد الموضوعي الملتزم بالحق الذي يهدف إلى بيان ما في العمل الأدبي من محاسن وأخطاء. أما المحاسن فذكرها يكون باعتدال ومن دون إسراف أو تهويل خشية وقوع المحذور في الاغترار والتصور بأن ما كتب لا يمكن مناقشته وبيان ما فيه من أخطاء. في حين أن ما كتب هو من فعل إنسان غير معصوم يرد كلامه. وعلى العموم فإن ذكر المحاسن والأخطاء يكون باعتدال دون إسراف أو تهويل.

الناقد والنقد في أدب الأطفال

كثر الكتّاب والأدباء، وأصبح أدب الأطفال في حالات عديدة عمل من لا عمل له، وظن من أمسك بالقلم أنه يستطيع أن يكتب في هذا الميدان وهو لا يملك الأدوات الصحيحة.

فإن كانت هذه حال عدد من الكتّاب، فما هي حال (النقّاد)؟! هذا إذا افترضنا أنه يوجد نقّاد في هذا الأدب متمكنون من أدواتهم، ويستطيعون حقيقة أن يميّزوا الجيد من الرديء، والرديء ليس فقط في الأسلوب أو الشكل، بل قد يكون رديئاً في الفكر.

محمد بسام ملص- الأردن

والصعوبة في نقد أدب الأطفال تكمن في أن هذا الأدب موسوعي، فهو يغطي جميع المعارف الإنسانية، ومن هنا وجب أن يكون الناقد موسوعي الاطلاع قدر الاستطاعة، وعارفا بهذا

الأدب وأسسه وتوجهاته، ومطلعا على لغة جمهوره، وقادرا على استيعاب ما يدور في أدب الأطفال عند الشعوب الأخرى، ليس فقط في مجال القصة والشعر والمسرح، ولكن أيضا في ميادين المعرفة المتعددة. وكأننا بذلك نضع صعوبات تبدو عائقا حقيقيا أمام النقد، ولكن يمكن أن تتحقق أشياء كثيرة بالصبر والجهد، دون النظر إلى الكسب المادي.

نقد غير موضوعي

هل هناك نقد غير موضوعي في أدب الأطفال؟ نقول نعم، على قلة النقد بشكل عام. وهذا النقد هو الذي يجرّح الأشخاص بالإساءات، وهو نقد سلبي يهدم ولا يبني، والنقد الأدبي الذي يهلل ويصفق ويعظم الأشخاص هو نقد غير موضوعي أيضاً، ويعتبر خطراً جسيماً على مسيرة هذا الأدب، ويمكن أن يكون كلمات مدح عابرة لها من الأغراض الذاتية والمصالح ما يمكن اعتباره نقدا استهلاكيا، وهذا النقد لا تخفى دوافعه على الفطن، وقد يكون مدفوع الثمن، وهنا تضيع الجهود الواجب توجيهها الوجهة الصحيحة، ويرتفع الأجر، فكل عمل لابن آدم هو عبادة خالصة لله عز وجل، ولابد أن يترك هذا أثرا سلبياً في كل من يطاله هذا العمل، وإن كان الظاهر أنه يحقق هدفا أو أهدافا، والحقيقة أنه يخدم مصالح ذاتية آنية، ويرضي أهواء، فهو نقد مرتزق.

ومن النقد غير الموضوعي النقد الصامت حين يسكت من يعرف الأخطاء، فهو إن لم يمسك القلم ويكتب أو يظهر موقفه وهو قادر على ذلك. وكأنه يخشى من يخشى لسبب أو لأسباب والله أحق أن يخشى. فإنه يقع في محظور السكوت عن الخطأ، فتثبت الأخطاء وتتراكم وتتعاظم آثارها، وقد لا تُقدّر خطورتها على المدى القريب أو البعيد بسبب غياب الرؤية النقدية الصحيحة السليمة التي تبني ولا تهدم.

إن دور النقد أن يوجه ويساعد ويقول الحق، دون خشية من غضب غاضب، ودور النقد أن يبيّن ما هو ضار في حق أولاد الأمة. ونحن هنا نتحدث عن أدب الأطفال، ومن واجب من يوجه إليه هذا النقد أن يقف وقفات تأمل هادئة، لا غاضبة ومتشنجة، فهو لا يكتب ليُمدح أو يُصفق له، وإنما يكتب أداء لأمانة، وقد منحه الله سبحانه وتعالى نعمه، فعليه أن يحسن الفعل حتى يلقى القبول عند خالقه.

وإن كان الأمر يدعو إلى المراجعة وتصحيح فعل ما بعد أن تبيّن الحق، فالواجب تبيان الخطأ والاعتراف به للكبار والصغار على حد سواء، وهذا لا ينقص من قيمته، ولا يقلل من جهوده، لا سيّما أنه يدرك أنه يعمل في سبيل الله، وأنه يخطىء، ومن هو المعصوم؟! وخير الخطائين التوّابون[٣].

تقبّل النقد

قد يكون من الصعب تقبّل النقد، وتزداد الصعوبة عندما يكون نقدا موضوعيا، فلا يقبل الكاتب أن توجه إليه ملحوظات نقدية يجد أنه غير قادر على الرد عليها، لا سيّما إن كانت تتناول أخطاء قد ارتكبها، والنقد هنا ينطلق من مبدأ أنه لا يخاف في الحق لومة لائم، وهو حريص على ما يكتب لأولاد الأمة، وبالتالي فإنه يمتلك حجة الحق لا حجة الباطل والهوى، وهو يعلم أن كل كلام يردّ عليه إلا كلام النبي ﷺ، ومن قبله الأنبياء والرسل عليهم السلام بما جاؤوا بالحق من ربهم عز وجل دون تحريف، وهذا يعني أن الكاتب سواء أكان مؤلفاً أم ناقدا عرضة للخطأ، فهو غير معصوم، وعليه أن يتقبّل رأي الآخر فيه برحابة صدر إن كان رأي الآخر موضوعيا بأكبر درجة من الموضوعية، لا يبتغي صاحبه إلا مرضاة الله، ومرضاة الله سبحانه وتعالى إنما تعني أن ما يقدّم لأولاد الأمة يكون متفقا مع قيمها لا مخالفا

لها. فدور الأدب هو التربية، والتربية هي البناء في زمن صعب. فهذه الأمة تتعرض لأعاصير فكرية تكاد تنزعها من جذورها. فهي لذلك في حاجة ماسة إلى بناء مرصوص يحفظ هويتها من الضياع. إن الهجوم على الأمة من الخارج والداخل شرس!

لماذا النقد؟

نتناول في هذا الباب نماذج عدة مما يقدّم لأولاد الأمة في أدبهم لبيان أهمية تنبيه الغافلين لما يدور حولهم، ولتوجيه المربين والمهتمين في هذا الأدب إلى الأخطاء، وما أكثرها في أدب الأطفال! وهي ما زالت تتوالى، والكبار ربما لا يعرفون، والأولاد يقرؤون، وتبنى قيمهم وتتشكل توجهاتهم وأفعالهم.

إننا - لا شك - حريصون على أن يكون بنيان الأمة مرصوصا لا ثغرات فيه، فلا تخترقه المكائد ويكون عصيًا على الإصابات.

نماذج للنقد في أدب الأطفال

١ - في قصة عن إبراهيم عليه السلام ذكر المؤلف أن والده: «كان صانع التماثيل. رجلا طيّبا، فنّاناً. ولم يكن يصنع التماثيل من أجل أن يعبدها الناس، بل ليعلمهم الفن وتذوّق الجمال»[٤].

هذا كلام غريب عجيب يتطلب وقفة نقدية قصيرة، إنه كلام يخالف ما ورد في كتاب الله عز وجل مخالفة صريحة، فإننا نقرأ قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ (مريم)، وفي الصحيح أن أباه يلقى في النار[٥]، فكيف يقال لأولاد الأمة بأن أباه كان رجلا فنانا طيّبا، وهو من الهالكين؟ أليس في هذا الكلام أيضا إباحة لصنع التماثيل التي تردي في النار؟ أهكذا نربي أولادنا؟ هل يسكت النقد عن كلام كهذا؟ وكيف يتجاهل المهتمون بثقافة الأمة خطورة هذا الكلام أو يسكتون عنه؟ غفر الله لكاتبه.

٢ - في قصة سليمان عليه السلام يقرأ أولاد الأمة أنه أقام «هيكلاً يقدّس فيه الرب قد أنفق في سبيله الأموال الطائلة»[٦]. هذا الخبر موجه للأولاد وهو من الإسرائيليات[٧]. والمجازفة في إيراده تكمن في استخدام لفظ (هيكل). وهو لفظ يتداوله اليهود بكثرة في وقتنا هذا، وهم يذكرون نواياهم الخبيثة في إعادة بناء الهيكل عند المسجد الأقصى، على حد زعمهم. هذه مجازفة تنتقل إلى أولاد الأمة فيجدون فيها مبررا لإعادة البناء طالما أنه خبر مدون في كتاب عن سليمان عليه السلام بقلم كاتب مسلم. وقد غاب ذكر حديث صحيح عن بناء سليمان عليه السلام مسجدا في بيت المقدس خالصاً لا يأتيه أحد إلا للصلاة فيه[٨]. فهل نترك أولادنا يقرؤون هذا، أم ننقده وننبّه الكبار إليه؟ حتى وإن تجاهل الكبار الأمر لأسباب.. الله وحده أعلم بها!

٣ - في السيرة النبوية أن الرسول ﷺ في رحلاته التجارية قد رأى «مدين ووادي القرى وديار ثمود وسمع الكثير عن هذه البلدان وأخبارها القديمة وأحداثها الكبيرة»[٩]. وهذا لم يرد في أي خبر صحيح، ولا حتى في الأخبار الضعيفة والواهية في المصادر المتقدمة والمتأخرة، وإنما هو دس الآخر من مستشرقين وغيرهم[١٠]. وهو عمل يؤدي بالقارئ إلى الاعتقاد بأن ما جاء في القرآن الكريم عن أخبار الأمم السابقة لم يكن وحياً لرسول الله ﷺ، وإنما كان مما سمعه قبل البعثة أثناء رحلاته التجارية، وبذلك يترسخ طعن أساسي من طعون أعداء الإسلام في هذا الدين وهو أن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام قد جاء بما جاء به مما سمعه من تلك الأخبار، وأن أثر النصرانية والنصارى على رسالته كان كبيرا، وأن رسالته إنما كانت لونا جديدا من النصرانية[١١]. والآية القرآنية: ﴿تلك من

أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل ... ﴿٤٩﴾ (هود) تفنّد هذا الزعم الباطل، ولكنه قد تسلل إلى فكر أولاد الأمة بقلم كاتب إسلامي، غفر الله لصاحبه، فهل يُسكت عن هذا أم يُنبّه إليه للضرورة حتى لا تتأثر أخبار السيرة بكل فرية أو دسّ خبيث؟

٤ ـ ومن أخبار السيرة قصة الشاة المسمومة التي أهدتها يهودية للرسول ﷺ في فتح خيبر، وهي قصة ثابتة في الصحيح[١٢]، وقد انتقلت هذه القصة إلى أدب الأطفال على لسان الشاة نفسها، ومما ورد فيها: « وكنت أفكر في طريقة لتحذير المسلمين من لحمي »[١٣]، هذه الكلمات التي يقرؤها الأولاد قد خرجت من فم الشاة بعد أن ذبحت وشويت ووضع فيها السم! فأين هذا مما في الصحيح؟ وهل في أخبار السيرة الضعيفة مثل هذا الكلام؟ هذا إنما هو اجتهاد من الكاتب تظهر فيه المعجزة في هذه القصة كأنها ليست معجزة! فإن الشاة وحدها تفكر في طريقة لتحذير المسلمين! هكذا تتحول سيرة الرسول ﷺ إلى حكايات طريفة وظريفة تخرج عن الصحيح، بل وتتجاوز الضعيف والواهي، لابتكار أمور لابد أن تترك أثرا سيئاً عند أولاد الأمة، غفر الله لمن كتبها، وأمد الله في عمره وأعانه على أداء الأمانة لما فيه الخير، ونسأله تعالى أن يهديه لينبه الكبار إليها حتى لا تصبح هذه الأخبار وأمثالها البديل للسيرة الصحيحة في ثقافة الأطفال وأدبهم.

٥ ـ في كتاب «الهلال والصليب» يتحول مجاهد مسلم إلى مقاتل نصراني يشارك في معارك المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، فقد ورد في الكتاب أن (المسيحيين العرب) شاركوا في معارك المسلمين ضد الفرنج، فقد «قاتل المسيحيون ضد الصليبيين، وكان من بين قوات صلاح الدين الأيوبي عدد كبير منهم، وقد اشتهر من بينهم عيسى العوام وهو مسيحي»[١٤].

يذكر في هذا الصدد أنه لم يثبت في المصادر التاريخية المعاصرة والمتأخرة في حدود ما وصل إلينا منها أي خبر عن مشاركة نصارى في قوات صلاح الدين المسلمة[١٥]. ونقف عند هذا الخبر الدخيل الذي نصّر المجاهد عيسى العوّام، في حين أن المصادر المعاصرة تبلغنا أنه كان مسلما[١٦]، فلماذا نصّره الكاتب؟ لقد فعل هذا إرضاءً لهواه المنهجي في تلفيق أخبار مزعومة عن الأخوة بين المسلمين والنصارى كما يتضح هذا من عنوان الكتاب: «الهلال والصليب». فلا عجب أن يتحول عيسى العوّام رحمه الله إلى نصراني يقاتل إلى جانب المسلمين، ويقع في حب أميرة من الفرنج تنقل إليه أخبارهم[١٧]، وإن سألنا عن مصدر الخبر لأتى الجواب بأنه مستقى من شريط سينمائي أخرجه المخرج يوسف شاهين عام ١٩٦٣م (نحو ١٣٨٣ هـ) عن نص من تأليف الكاتبين يوسف السباعي وعبد الرحمن الشرقاوي[١٨].

أليس من الخطر أن نربي أولادنا على فكر كهذا يحاول أن يلغي أحد الثوابت

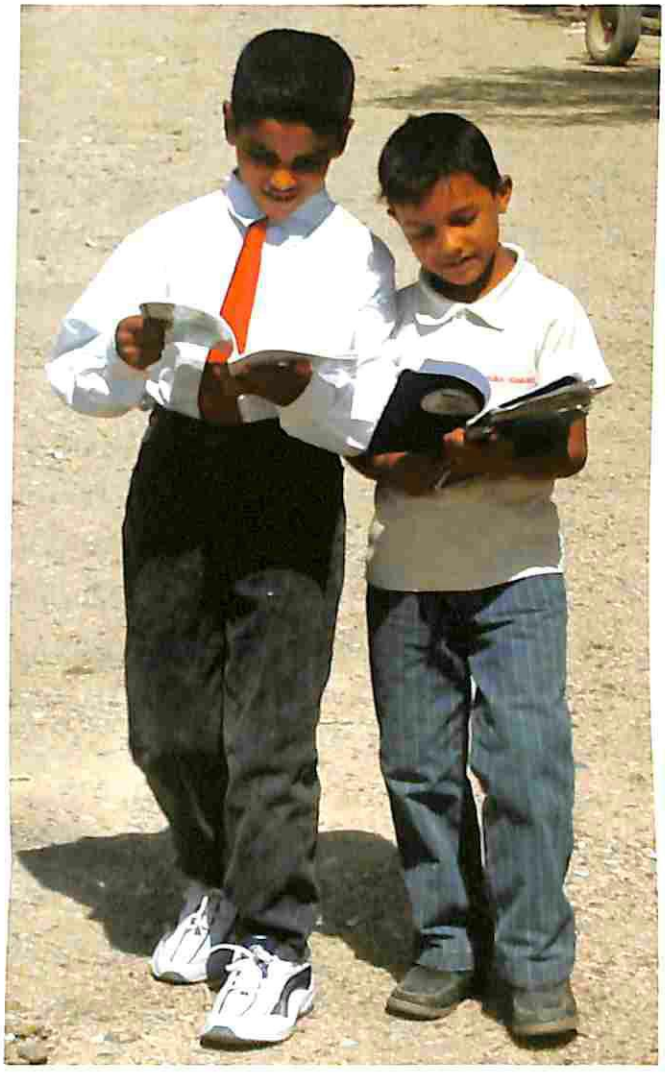

المهمة في عقيدتنا ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ (سورة الحجرات ١٠)؟ وتتثبّت الخطورة عندما يذكر أن كتاب «الهلال والصليب» هو من الكتب الإسلامية للأجيال الجديدة[١٩]. غفر الله لصاحبه ولنا، وأعانه على أداء الأمانة لما فيه خير الأمة.

٦ . في كتاب عن علماء المسلمين وعلماء الفرنج يذكر أن وليم هارفي قد كتب كتاباً «سوف يعتبر من أعظم عشرة كتب غيّرت من تاريخ العالم»[٢٠]. وعندما يلتقي وليم هارفي بالعالم المسلم ابن النفيس رحمه الله في لقاء تخيلي يُراد منه إجراء موازنة بين العالمين، عندما يتم اللقاء يذكر الكاتب لنا أن وليم هارفي قد ذهل عندما عرف أن ابن النفيس قد سبقه إلى هذا الكشف[٢١].

ونسأل: ماذا يفهم القارىء من هذا؟ يفهم أن وليم هارفي لم يكن على علم بكتاب ابن النفيس عن الدورة الدموية الصغرى، فإنه - أي وليم هارفي - قد اكتشف هذا الكشف العظيم، ولذلك اعتبر كتابه من أعظم عشرة كتب غيّرت من تاريخ العالم[٢٢].

فهل نصدّق أن وليم هارفي لم يكن على علم بكتاب

الهوامش:

١ . ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ج ٣، ص ٤٢٥.

٢ . المحيط، معجم اللغة العربية، بيروت، المحيط، ١٩٩٣ م، ج ٣، ص ١٢٦٨.

٣ . الترمذي صحيح سنن الترمذي : تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٨ م، أبواب صفة القيامة، ج ٢، ص ٣٠٥، وهو حديث حسن.

٤ . عبد التواب يوسف، حياة الخليل إبراهيم عليه السلام، ١ كوكب الأرض، القاهرة، دار الكتاب المصري، ١٩٨٣ م، ص ٩.

٥ . البخاري، صحيح البخاري، القاهرة، مطابع الشعب، ١٩٥٨م، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: واتخذ الله إبراهيم خليلا، ج ٤، ص ٤٦٠.

٦ . سميح عاطف الزين، وعبد التواب يوسف، قصص الأنبياء للأبناء، سليمان عليه السلام، القاهرة، دار الكتاب المصري، ١٩٨٩ م، ص ٨-٩.

٧ . الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر الملوك الأول، فصل ٥، ٦، ٧.

٨ . النسائي، صحيح سنن النسائي : تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٨ م، كتاب المساجد، باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه ج ١، ص ١٤٩.

٩ . عبد التواب يوسف، طفولة النبي للأطفال، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤ م، ص ٤٣.

١٠ . ينظر على سبيل المثال: درمنغم، إميل حياة محمد : نقله إلى العربية محمد عادل زعيتر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٥ م، ص ٣٣، ومحمد حسين هيكل، حياة محمد، ط ١٣، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨ م، ص ٣٣.

١١ . ينظر على سبيل المثال: بودلي، ر، ف، الرسول: حياة محمد : ترجمة عبد الحميد جودة السحار ومحمد محمد فرج، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٤٦ م، ص ٤٩، ٦٥. ومناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٥م، ج ١ ص ١٣١ - ١٣٥، ودرمنغم،

ابن النفيس؟ وهل نصدّق أن الكاتب ليس على علم بالأمر كله، وهو المعروف في أدب الأطفال وثقافتهم بتبحّره في المعارف؟

هذا اللقاء الفريد في ذلك الكتاب يضلل القارىء، بل إنه يدفعه لتعظيم وليم هارفي من خلال إخفاء حقيقة انتقال اكتشاف ابن النفيس إلى علماء الفرنج لينتهي إلى هارفي! فمن المعروف عند الباحثين في تاريخ الطب أن شرح العالم ابن النفيس رحمه الله للدورة الدموية الصغرى قد أخذه العالم الإيطالي أندرياس الباجوس وترجمه إلى اللاتينية، ثم اعتمد الإسباني سرفيتس على هذه الترجمة وأضافها إلى كتاب ألّفه عن النصرانية وصدر عام ١٥٥٢ م(نحو ٩٦٠ هـ)، قد اطّلع هارفي على كتاب سيرفتس عندما كان يدرس في جامعة بادوا الإيطالية مدة خمس سنوات، فقد كانت نسخة منه موجودة في مكتبة الجامعة[٢٣]. وهكذا تتضح حقيقة وليم هارفي وحقيقة كتابه، وبالتالي يتبيّن أمر انتحال علماء الفرنج هذا الاكتشاف العلمي المهم، وتتبيّن بذلك حقيقة النهضة الأوروبية المزعومة التي هي « أشبه ما تكون بالولد الذي نسب إلى غير أبيه الحقيقي »[٢٤]. هذا حكم المؤرخ الباحث فؤاد سزكين الذي قضى شطرا كبيرا من عمره يدرس إسهامات علماء الأمة وبيّن بجلاء أن أخذ علماء أوروبة من علماء المسلمين كان غير أمين[٢٥].

فهل نترك أولاد الأمة يقرؤون كلام التعظيم والتقدير لعالم ادّعى لنفسه اكتشاف الدورة الدموية؟

أليس من الضروري توجيه النقد لهذا الكتاب الذي ما زالت طبعاته تتوالى[٢٦] حتى تتبيّن الحقيقة للأولاد؟ غفر الله لصاحبه.

خاتمة

نرجو ألا يكون واقعنا الثقافي مرهونا بالرضا بما هو قائم، وما هو قائم مرير تسوده ظلمات، وبالسكوت عن الأخطاء، وما أكثرها في واقعنا الثقافي! فغش الرعية أمر لا تحمد عقباه، ومن أمسك قلماً وكتب ينبغي أن يدرك أنّ عليه أن يصون الأمانة ويرعاها، مثلما يصون المزارع النبتة ويرعاها حتى تعطي ثمارا طيبة.

نحن أمام أمانة ينبغي أن نؤديها بما يرضي الله، لا بما ترضي الأهواء، حرصاً على أولادنا، وحفاظا على أمتنا من السقوط ■

حياة محمد، ص ٥٠، ١٠١

١٢ - صحيح البخاري كتاب الهبة وفضلها، باب قبول الهدية من المشركين، ج ٣، ص ٢١٤، وكتاب الطب، باب ما يذكر في سم النبي ﷺ، ج ٧، ص ١٨٠، وصحيح مسلم، كتاب الإسلام، باب السم، ج، ١٤ ص ١٧٨ - ١٧٩.

١٣ - عبد التواب يوسف، حياة محمد ﷺ في عشرين قصة، ط ٢، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٠م، ص ١٢٩.

١٤ - عبد التواب يوسف، الهلال والصليب، القاهرة، مؤسسة روز اليوسف، ١٩٨٠ م، ص ٢٣، ٢٧.

١٥ - ينظر على سبيل المثال: العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي؛ تحقيق محمد محمود صبيح، القاهرة، الدار القومية، ١٩٦٥م، وابن الأثير الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، ١٩٨٢م، ج١١، ص ٣٤٢ - ٥٦٣، وج ١٢ ص ٥ - ٩٧.

١٦ - ينظر على سبيل المثال: الفتح القسي، ص ٤٢٣، و أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، بيروت، دار الجيل، ج ٢، ص ١٦٢، وابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية؛ تحقيق جمال الدين الشيّال، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٤ م، ص ١٣٥ - ١٣٦.

١٧ - محمود قاسم، حكايات سينمائية مثيرة، القاهرة، دار الهلال، ١٩٩١ م، ص ٣٠ - ٣٣.

١٨ - المرجع نفسه، ص ١٨، ٣٤.

١٩ - الهلال والصليب، ص ٦.

٢٠ - عبد التواب يوسف، علماء العرب وعلماء الغرب في اللقاء الفريد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، ص ٨٥.

٢١ - المرجع نفسه، ص ٨٧،

٢٢ - المرجع نفسه، ص ٨٥،

٢٣ - فؤاد سزكين، محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت: معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ١٩٨٤ م، ص ٤٧.

٢٤ - المرجع نفسه، ص ١٠٢.

٢٥ - المرجع نفسه ، ٢٨، ٣٣، ٩٧.

(٢٦) عبدالتواب يوسف، محمد بسام ملص جسر بين أطفالنا وعالمنا وعصرنا، مجلة الأدب الإسلامي، عدد٤٩، ص٥٤.